تعريف بالكتاب

قصة هكلبرى فن هى قصة طفل شريد نشأ فى « حياطة » اب سكير لم تكن له حياطة يتعهد بها طفله الصغير غير الضرب من حين الى حين لسبب او لغير سبب ، وبذريعة يتذرع بها فى يوم من الأيام وبغير ذريعة على الاطلاق فى اكثر الأيام .

ويهرب الطفل بعد ان اعياه الصبر على هذه الحال فيعثر مع زميل له من الأطفال المشردين على صندوق مملوء بالذهب فى كهف لص آبق كان يقطع الطريق ولا يستقر فى مكان ، فيسلمان الصندوق الى القاضى الموكل بالأمانات ويودعه القاضى باسميهما ويجرى على كل منهما ريالا فى اليوم ، ثم يؤول أمر « هكل » الى سيدتين رحيمتين تشفقان عليه وترعياته فى البيت والمدرسة لتعليمه وتهذيبه وانقاذه من صحبة السوء الذين تعلم منهم التدخين وهجر القول وقلة الصبر على معيشة الدار والمثابرة على عمل من الأعمال غير الأعمال الموقوتة التى يضطر اليها ليكسب من هنا وهناك ما يدفع به غائلة الجوع ، ولكن الطفل الذى الف حياة التشرد يوازن بين المعيشة المكفية المنتظمة فى حضانة السيدتين وبين معيشة الضرب والتشرد فى حضانة أبيه فيوشك أن يفضل هذه على تلك لولا انه فوجىء بظهور أبيه وعلم انه يتعقبه ليعيده اليه ، فتوسل الى القاضى ان يضع يده على المال كله خوفا من اصرار أبيه على استعادته اليه طمعا فى المال ، بل خوفا من ملازمة ابيه وهو يملك المال الذى يسول له الافراط فى الشرب والعربدة والافراط فى الضرب والمطاردة ، ولكنه وقع فى قبضة ابيه على الرغم من هذه الحيطة ، وصبر على ملازمته ما استطاع لأنه أحس أنه لا يكرهه تلك الكراهية التى ظن أنها تقصيه

عنه يوم هرب منه ، ثم اعياه الصبر مرة اخرى فاوهم اياه انه قتل وهو يطارد بعض الصيد ليكف عن طلبه ، وافلت من الرقابة لان الباحثين عنه صدقوا اشاعة قتله حتى اعتقدوا ان قاتله زنجى آبق كان يصحب هكل ويعينه على معيشته كما يستعين به حيثما استطاع .

وتتوالى حوادث الرواية بين ابطالها الذين جمعتهم جامعة التشرد وقلة الصبر على قيود المعيشة الاجتماعية ، وبين شركائهم فى بطولة الرواية ممن يمثلون المعيشة الاجتماعية على تقاليدها المصطلح عليها ، ويلقاهم اولئك المتشردون حيثما اتفق اللقاء فيعرض لنا المؤلف منهم عالما حافلا باشتات الصورة تتآلف وتتنافر بين الوان العرف الاجتماعى والوان الحياة المشردة بعيدا من تقاليد العرف وبعيدا من نفاقه ومظاهره فى وقت واحد ، واعجب ما فى هذه الصور تبادل الولاء بين هكل والزنجى جيم العبد الآبق من سادته ، فان هكل قد درج فى بلاد الجنوب حيث يعتقد الناس ان ملكية العبيد حق مشروع كملكية المتاع والضياع ، وحيث يشعر الطفل الدارج على هذه العقيدة أن معاونته على تهريب عبد مملوك لسيد معروف جريمة كجريمة المعاونة على تهريب السارق والمحتال ، ولكن هذا الاعتقاد لا يمنع هكل ولا الزنجى الآبق ان تتصل بينهما سنة الولاء وان يفكر هكل فى مساعدة صاحبه على افتداء نفسه بالمال ، ارضاء لضميره الذى لا يستريح الى الاكتفاء بمساعدته وتهريبه من مطارديه ، ويرينا المؤلف وهو يعرض لنا صور العرف وصور الخارجين عليه أن المتشرد قد يساعد نفسه كما يساعد صديقه فى الضيق عند الحاجة التى لا يملك دفعها ، فيخفى الصديق صديقه الهارب ويبيح لنفسه ان يمد يده الى الطعام المسروق اذا عضه الجوع ولم يقدر على شرائه ، ولكنه فيما عدا هذه « الاباحات » الضرورية يجرى على الفطرة التى لا يشوبها رياء التقاليد كلما وجبت أمانة العهد ووجب التعفف عن الغدر والخيانة ، ولا تزال هذه الصور الانسانية تتلاقى وتفترق وتتشابك وتنفصل وتتراءى منها جوانب الخير الخالص فلا نراها كلها وقفا على

آداب العرف ولا تراها كلهـا وقفا على آداب المتحللين منه والخارجين عليه ، ولا يفوتنا أن نلمس بينها جميعا ما هو من وحى الانسانية الفطرية بفضائلها وعيوبها وما هو من وحى المجتمع بفضائله وعيوبه .

ولم تلبث هذه القصة الواسعة الآفاق أن تظهر لقرائها الأمريكيين حتى اصبحت من تراث الأدب الانجليزى فى كل مكان تقرأ فيه هـذه اللغة ، وتحقق المؤلف والناشرون من انها عمل ناجح من الوجهة المالية نجاحه من الوجهـة الأدبيـة ، وقال المؤلف فى ترجمة حياته التى كتبها بقلمه ان الناشر : « اصاب التوفيق فى هكلبرى فن وارسل الى تحويلا ماليا بمبلغ خمسـة وأربعين الف ريال وخمسمائة ريال ، ومنها خمسـة عشر الف ريال حصتى من راس المال » .

ثم قال باسلوبه الفكاهى الذى لا يفارقه : « ومرة اخرى احسست انني ولدت مولدا جديدا لأن لى عددا من الولادات الجديدة لا تزيد عليه ولادات احد من الأحياء ، ما عدا كرشناه ـ المشهور بتقمص روحه ـ فيما احسب ! » .

وربما اختلف نقاد العصر فى استحسان نشر الرواية اليوم بعباراتها التى ظهرت بها قبل ثلاثة أرباع القرن (سنة ١٨٨٥) لاختلاف الأحوال الاجتماعية بين ذلك العهد وهذا العهد الحاضر ولكن الرأى الغالب هو الرأى الذى تحدث به أحد المتحاورين ـ بعد ـ اذ يقول ان القصة يقرأها الطفل فى العاشرة ويقرأها الرجل الناضج ويرجو هو أن تتفق له قراءتها اذا بلغ الثمانين .. فمهما يكن من تبدل الأحوال الاجتماعية بين أواخر القرن التاسع عشر ومنتصف هذا القرن العشرين فالأحوال الانسانيـة لا تتبدل فى أعمال الفنون الخالدة ، ومن تلك الأحوال الانسانية أن يعامل الزنجى معاملة انسان يبادل اصحابه الولاء ويبادلونه على شرعة المساواة قبل أن يجترىء أحـد على اعلان ذلك باسم الشريعـة أو اسم الخلق الكريم .

ولقد خطر للكثيرين ان الفكاهة المضحكة التى تخللت الرواية وتخللت كتابات مارك توين فى جملتها هى سر نجاح هذه الرواية وسر نجاح غيرها

من كتبه وأقاصيصه ، ولكن الفكاهة المضحكة قلما يكتب لها البقاء ان لم تكن فى صميمها تعبيرا عن الطبيعة البشرية فى أعمق أعماقها . وكذلك كانت فكاهة مارك توين الضاحك المازح الذى يحسبه بعض نقاده أملا من أئمة التشاؤم . ويقول هو فى مقاله عن الانسان انه العوبة بين أيدى المقادير ، بل يقول عن نفسه عند الكلام عن « نقطة التحول الحاسمة فى تاريخ حياته » انه لم يشتغل بالكتابة الا من قبيل المصادفة ، وان هربه من المستشفى وتعرضه لوباء الجدرى هو الذى أوحى الى امه ان تدفع به الى المطبعة ليتعلم صف الحروف ويبتعد عن بيئة الأطفال الجامحين وعن اخطار العدوى بالأوبئة ومساوىء الأخلاق ويكاد يقول — من ثم — ان أهم ما يهمنا ويهم الناس من حياتنا انما هو لعبة من العاب المصادفة وتدبير لأغراض تريدها ولا يتم منها الا ما أرادته المقادير .

وعلى هذا تشعر بالفارق البعيد بين ضحك وضحك وبين فكاهة وفكاهة .

فان الفارق يعيد جدا بين ضحك تدعو اليه قلة الاهتمام بالأمور وضحك هو غاية الاهتمام بها وهو حيلة من لايعرف له حيلة افضل منها. وقد رأينا الكاتب يقول قبل سطور ان ولادته الجديدة لا تفوقها ولادات حى آخر غير ولادات برهما التى تتناسخ بها أرواح الأحياء .. وهذه نكتة ساخرة وضحكة عابرة ، ولكنها اذا قيلت بعبارة اخرى فهى مرادفة تمام المرادفة لقوله انه قد عرف الموت عدة مرات .

وعلى هذا النحو عبر — سامحه الله — عن حياة الفلاح المصرى كما رآها قبل اكثر من خمسين سنة ، فانه كان يقول فى وصف رحلته النيلية أن الأيام كانت تجرى والسفينة واقفة فى مكانها ، لأنه حيثما امسى واصبح وجد امامه ثلاث نخلات هنا وبضعة أخصاص هناك ، وماء فى الوسط وشاطئين على الجانبين .. وهذا أسلوب مارك توين حين يريد أن يصف الحياة التى رزحت بالزمان بعد الزمان فى غير تبديل ولا تحويل .

وان القارىء ليفهم مارك توين حق فهمه ويدرك تعليقات الشارحين له حق ادراكها اذا قرأ العبارة وأعاد ترجمتها لنفسه على هذا الأسلوب : كلمة بلسان الضاحك المازح — وكلمة بلسان الجاد الصارم الذى اهتم بالأمر فبلغ به غاية الاهتمام .

عباس محمود العقاد